مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السادسة عشرة : العدد الرابع والستون ـ محرم ١٤٣٠ هـ ـ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩م

مصحف عثماني، مطبوع بسنت بطرسبورغ،
حجري، سنة ١٩٠٠م

Ottoman Holy Quran, Copied in St Petersburg
Stone manuscript in 1900

سيميائية الرمز والأيقونة

((قصيدة ابن العلاف في رثاء هرٍ مثالاً))

أ.د. أحمد علي محمد

حمص - سوريا

١ - مقاربة بين المفهوم والمنهج:

١-١: يحصر المهتمون بمجال السيمياء العلامات الدّالة من حيث وظيفتها التواصلية بثلاث وسائل أساسية: المؤشر(Index) والرمز (Sybole) والأيقونة (Icone)، وهذه إنّما هي في الواقع علاماتٌ مفردة لا تنجم عنها دلالات واضحة ما لم يتم إدخالها في أنظمة دالة، أي مجموعة من العلامات القائمة على التداخل والاندماج والمماثلة التي تمكّنها من التحوّل إلى علامات أخرى بمؤثر ثقافي ما يسهم في إيجاد وعي يدرك دلالاتها التعبيرية، ومن ثمّ تحديد مجالها التأويلي.

وما من شك أنّ معرفة الوظيفة التواصلية للعلامات وطبيعتها الإشارية لا تتحقق من دون الكشف عن مجالات تشكيل تلك العلامات في المنظومة النصيّة التي تسهم أصلاً في خلق مجال تتأسس فيه الدّلالة العلاماتية كفك المرموز إليه من خلال الرمز، وتعيين المؤشر الدال، ووعي التشابه بين الأيقونة وما ترمي إليه. وقد تنبه الجاحظ إلى الغاية التوصيلية للعلامات في معرض كلامه عن آلة البيان في قوله: "وجعل (الله) آلة البيان التي يتعرفون بها معانيهم والترجمان الذي يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء: اللّفظ والخط والإشارة والعقد"[١].

وثمّة اختلاف ظاهر بين تلك الوسائل الدّالة ينجم عن اختلاف طرائق تشكلها وآليات أدائها الدّلالي فالرّمز إشارةٌ حرفية إلى مضمون ما. أما الأيقونة فهي تمثيل لا يدل على موضوعه مباشرة بقَدْرِ ما يدل على جهة تتصل بالرؤيا. أو تشير إلى ثيمة تلوح من وراء وشاح لتنبيه المتلقي على أمر يَعْضُد الاختلاف والتباين. من أجل ذلك كان الرّمز أحادي الدّلالة، وضحاً ينهل من موروث

ثقافي معروف. والأيقونة متعددة تنبعث منها دلالات مبعثرة. فيها طاقة تشكيلية وقدرة شعرية نادرة تعمد إلى توظيف الإشارات النصيّة بما فيها الرّمز لإعادة إنتاج المعنى باستمرار.

ليست الأيقونة فكرةً بل تسهم في إنتاج فكرة؛ لأنّ لديها قابلية التّطور والتشكّل بصور غير متناهية. ومن ثم فهي تختلف عن الرّمز الذي يتضح عادة في ذهن المتلقي في حال موافقته محفزات استدعائه. ومن ثم حضوره مجسداً بهيئته دال بجوهره لا بصفاته. لذلك سرعان ما يتحول إلى مؤشر لا يُفهم ما لم ينحلّ إلى أيقونة.

ويميز بيرس بين الرّمز والأيقونة والمؤشر. إذ يقصد بالرمز إثبات علاقة دائمة في ثقافة ما بين عنصرين. أما الأيقونة فهي إعادة الدلالة بطريق تحويل العلاقات المعروفة بين العلامات عن أساسها الوضعي. في حين كان المؤشر عنده متصلاً بالواقع الخارجي. إلا أنّ العلاقة بينه وبين الواقع إنّما هي علاقة تجاوز وتخط. إذ المؤشر يستدعي الاستدلال مثل الدُّخان الذي يستحيل مؤشراً على وجود النار. أمّا الرّمز فيسلك عادة طرقاً وضعية مثل الميزان الذي يرمز إلى العدالة. وكذا الأيقونة تنحل عن علاقة مشابهة مع الواقع الخارجي إذ تظهر في خصائص أو صفات الشيء المُشار إليه بطريق الاستدعاء مثل أن نقطة الدّم اللّون الأحمر[١٠].

٢-١ ثمّة محاولاتٌ تخطّت المجال النّظري السيميائي العلاماتي بُغية إيجاد إجراء نقدي يعضد الممارسات التحليلية في الكشف عن سيميائية بعض نصوص الأدب. كمحاولة عبد الملك مرتاض في كتابه الموسوم بـ"تحليل الخطاب السيميائي" الذي درس فيه قصيدة السياب "شناشيل ابنة الجلبي" من خلال ثلاثة مستويات سيميائية: الأول: التشاكل والتباين. والثاني المماثلة والقرينة والثالث: الحيّز والتحيّز[١١]. في حين تناول محمد جاهين حلبي "سيميائية التناظر والتقابل في نونية ابن زيدون"[١٢]. واكتفى محمد يوسف بدراسة الدّلالات المفتوحة للعلامة اللّغوية في كتابه الذي سمّاه "مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة"[١٣].

والحقُّ أنّ المضمار البحثي التطبيقي في مثل هذه الدراسات لم يجز الطور التجريبي. أي لا يعدو كونه مقاربات انعدمت في سبلها الصور. لتبقى الإشكالية قائمة بين مستوييها: التنظيري والتطبيقي: ذلك لأنّ التوصيف النظري للعلامات اللّغوية لم يؤيد بأمثلة مقنعة يرجحها السيّاق النّصي عامة. وأية ذلك محاولة مرتاض التي لا تخرج في حقيقتها عن دراسة معجمية ونحوية لبعض كلمات قصيدة السياب إضافة لبعض

التعليقات المستوحاة من الثقافة عامة. مع أنّه يرى في دراسته جانباً فريداً إذ يقول: "قد تكون الممارسة التطبيقية التي جريتُ عليها. على هذا النّحو من التفصيل والتركيز حدثت لأول مرة في العربية"[١٤]. ومع ذلك لن تستطع تلك الممارسة الإفادة من العناصر السيميائية الدّالة كالمؤشرات والرّموز والأيقونات التي تُعَدُّ كما أشرتُ وسائل سيميائية بامتياز. يضاف إلى ذلك الخلط الذي محا الحدود بين مجالات الدّلالة والمعجم ومجالات الإشارات والسيمياء كما هو الشأن في دراسة أحمد يوسف. وتحوّل الدراسة السيميائية عن محورها الإشاري إلى مجال بنيوي صرف مثلما حدث في دراسة محمد جاهين التي ارتكزت أساساً على محوري التقابل والتناظر.

٢ - النص: (من المنسرح):

١. يا هرُّ فارقتنا ولم تعُد ... وكنت منا بمنزل الولد
٢. فكيف ننفك عن هواك وقد ... كنت لنا مدّةً من المدد
٣. تمنع عنا الأذى وتحرسنا ... بالغيب من حيّة ومن جرد[1]
٤. وتُخرج الفأر من مكامنها ... ما بين مفتوحها إلى السدد
٥. يلقاك في البيت منهم مددٌ ... وأنت تلقاهم بلا عُدد
٦. لا عددٌ كان منك منفلتًا ... منهم ولا واحد من العدد
٧. لا ترهبُ الصيف عند هاجرة ... ولا تهابُ الشتاء في الجمد
٨. وكان يجري ولا سداد لهم ... أمرُك في بيتنا على سدد
٩. حتى اعتقدتُ الأذى لجيرتنا ... ولم تكن للأذى بمعتقد
١٠. وخُمتَ حول الردى بظلمهم ... ومن يحم حول حوضه يرد
١١. إنّ الزمان استقاد منك ومن ... يسلم لغير الزمان يستقد
١٢. فإنْ رماك الردى بحادثة ... فما على الحادثات من قود
١٣. وكان قلبي عليك مرتعداً ... وأنت تنسابُ غير مُرتعد
١٤. تدخلُ برج الحمام متئداً ... وتخرج منه غير متئد
١٥. وتطرح الرّيش في الطريق لهم ... وتبلعُ اللّحم بلعَ مزدرد
١٦. أطعمك الغيّ لحمها فرأى ... قتلك أربابها من الرُّشد
١٧. كادوك دهراً فما وقعت وكم ... أفلت من كيدهم ولم تكد
١٨. حتّى إذا خاتلوك واجتهدوا ... وساعد النّفس كيدُ مجتهد
١٩. صادوك غيظاً عليك وانتقموا ... منك وزادوا ومن يُصِدْ يُصد
٢٠. فلم تزلْ للحمَام مرتصداً ... حتى سُقيت الحمام بالرّصد
٢١. ثم شفوا بالحديد أنفسهم ... منك ولم يربعوا على أمد
٢٢. لم يرحموا صوتك الضّعيف كما ... لم ترث منها لصوتها الغرد
٢٣. فحين كاشفت وانهكت وجا ... هرت وأسرفت غير مُقتصد
٢٤. أذاقك الموت من أذاق كما ... أذقت أطياره يداً بيد
٢٥. كأنهم يقتلون طاغيةً ... كان لطاغوته من الغبد
٢٦. فلو أكبو على القراميط أو ... مالوا على زكرويه لم يزد
٢٧. يا من لذيذ الفراخ أوقعهُ ... ويحك هلا قنعت بالقدد
٢٨. ما كان أغناك عن تسورك البـ ... ـرج ولو كان جنة الخلد

٢٩. لا بارك الله في الطعام إذا ... كان هلاك النفوس في المعد

٣٠. كم أكلة داخلتْ حشا شره ... فأخرجتْ روحه من الجسد

٣١. أردت أن تأكل الفراخ ولا ... يأكلك الدهرُ أكل مضطهد

٣٢. هذا بعيدٌ عن القياس وما ... أعزه في الدنو والبعد

٣٣. ولم تكن لي بمن دهاك يدٌ ... تقوى على دفعه يداً بيد

٣٤. ولا تبين حشو جلدك عن ... د الذبح من طاقة ومن جلد

٣٥. كأن حبلاً حوى بحوزته ... جيدك للذبح كان من مسد

٣٦. كأن عيني تراك مضطرباً ... فيه وفي فيك رغوة الزبد

٣٧. وقد طلبت الخلاص منه فلم ... تقدر على حيلة ولم تجد

٣٨. فجدت بالنفس والبخيل بها ... كنت ومن لم يجدْ بها يجد

٣٩. عشت حريصاً يقوده طمع ... ومت ذا قاتل بلا قود

٤٠. فما سمعنا بمثل موتك إذ ... متّ ولا مثل عيشك النكد

٤١. عشنا بخير وكنت تكلؤنا ... ومات جيراننا من الحسد

٤٢. ثم تقلبت في فراخهم ... وانقلب الحاسدون بالكمد

٤٣. قد انفردنا بمأتم لهم ... بعد بالعروس أيّ منفرد

٤٤. قد كنت في نعمة وفي سعة ... من المليك المهيمن الصمد

٤٥. تأكل من فأر بيتنا رغداً ... وأين بالشاكرين للرغد

٤٦. قد كنت بددت شملهم زمناً ... فاجتمعوا بعد ذلك البدد

٤٧. وفتتوا الخبز في السلال فكم ... تفتّت للعيال من كبد

٤٨. فلم يبقّوا لنا على سبد ... في جوف أبياتنا ولا لبد

٤٩. فرّغوا قعرها فما تركوا ... ما علقته يد على وتد

٥٠. ومزقوا من ثيابها جدداً ... فكلنا في مصائب الجدد

٥١. فاذهب من البيت خير مفتقد ... واذهب في البرج شرّ مفتقد

٥٢. ألم تخف وثبة الزمان وقد ... وثبت في البرج وثبة الأسد

٥٣. أخنى على الدار فيه بالأمس ... ومن قبلها أخنى على لبد

٥٤. ولم يدعْ في عراصها أحداً ... ما بين علیائها إلى السند

٥٥. عاقبة البغي لا تُسام وإن ... تأخرتْ مدةً من الأمد

٥٦. ومن لم يمت يومه يمت غده ... أو لم يمت في غد فبعد غد

٥٧. والحمد لله لا شريك له ... فكل شيء يُرى إلى أمد

٢-١: تفترض الممارسة النقدية تعيين العلامات السيميائية في النّص ومن ثم تحديد دلالاتها. بمعنى أنه لابد من تعيين الرّموز والأيقونات والمؤشرات التي تبدو لنا على الوجه الآتي:

أ- إنّ كلمة (هِرّ) التي جاءت في مستهل القصيدة لها مجالات كما سبقت الإشارة: مجال صريح مباشر يحدد الغرض من النّص بوصفه كما قال الصفدي في رثاء الحيوان. ومجال إشاري غامض غير معين يوحي بالتقنع والرّمز والكناية كما لاحظ المتقدمون.

والواقع أن لفظ (هرّ) هنا كناية عن شخص رثاه ابن العلاف بصورة خفية. فلهذا استترت مقاصد القصيدة وراء قناع حيواني تمثل بهر تسلق أبراج الحمام وفتك بفراخها. على نحو ما تكشف عنه ظواهر البُنى النّصية. غير أنّ البنية العميقة للغة في النّص ترجح مستوى آخر في الدلالة يسهم في تشكيل أيقونة لديها قابلية التحول بصورة كنائية مفترضة. أو رمز ناجم عن تضافر دلالات تربطها المصادر الأدبية بابن المعتز أو بغلام ابن العلاف أو بالمحسن بن الحسن بن الفرات.

ب- ذكر رجاء النّقاش أنّ قصيدة ابن العلاف الدّالية كانت في رثاء ابن المعتز الخليفة العباسي الذي لم يُمضِ في الخلافة سوى يوم وليلة. إذ أغرى به الأجناد فوثب على الخلافة طَمعاً بالقوة والسلطة والسيادة. وكانت بينه وبين ابن العلاف صداقةٌ متينة قبل توليه الخلافة. فلما قتله المقتدر هاله ما آلت إليه أمور صديقه ابن المعتز. فنظم هذه القصيدة في رثائه مستتراً برمز الهر خوفاً من بطش الخليفة. وبذا يخلص النقاش أنّ الهر هو ابن المعتز نفسه[٨].

ويلاحظ النقّاش أنّ القصيدة لم تكن خالصة في الرّثاء والتأسف لموت ابن المعتز. بل انطوت على نقد لاذع وعتاب شديد[٩] من دون أن يلتمس سبباً لذلك النقد أو يكشف الدافع إليه. والواقع أنّ القصيدة جازت العتاب واللوم والنقد لتستحيل ضرباً من التشفي. والسؤال المهم هنا: إذا كان ابن المعتز صديقاً لابن العلاف. وكانت قد انعقدت بينهما علاقة أدبية سامية ونزيهة فما دواعي العتاب والنقد والتشفي؟

لم يكن ابن المعتز مندفعاً للخلافة. بل دفع إليها دفعاً. وكان أمضى دهراً من زمانه في مخالطة العلماء والأدباء حتى عُدّ من جملتهم. وقد شهدت له مصنفاته في الأدب والشعر على حُسن خُلقه ودماثة طبعه وطيب معشره. كما عُرف بتخلقه بأخلاق العلماء الأفاضل. يقول ابن خلكان: " كان عبد الله بن المعتز مخالطاً للعلماء والأدباء معدوداً من جملتهم إلى أن جرت له الكائنة في خلافة المقتدر. واتفق معه جماعة من الأجناد ووجوه الكتاب فخلعوا المقتدر يوم السبت لعشر بقين وقيل لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ومئتين. وبايعوا عبد الله وسموه المرتضي بالله وقيل المنصف بالله... وأقام يوماً وليلةً. ثم إنّ أصحاب المقتدر تحزبوا وتراجعوا وحاربوا أعوان ابن المعتز وشتتوهم وأعادوا المقتدر إلى دسه واستخفى ابن المعتز في دار أبي عبد الله الحسين المعروف بابن الجصاص التاجر فأخذه المقتدر وسلمه إلى مؤنس الخادم فقتله وسلمه إلى أهله"[١٠].

وظاهر الخبر لا يعضد في الحقيقة الكناية التي تربط بين الهر وشخصية ابن المعتز. بل على العكس تماماً. إذ لا نجد ما يشي بالتشابه بين الهر (الأيقونة) هنا ودلالتها على ابن المعتز.

٢-٢ : أيقونة الهر في التراث:

تحيل كلمة (هَرٌ) بحسب اللّغة على الكره والشرّ. يقول صاحب اللّسان: "هرَّ الشيء هراً وهريراً كرهه. وقال ابن الأعرابي أجد في وجهه هَرَّةً وهريرة أي كراهية. ويقال هَرَّ الكلبُ يهر هريراً. إذا أخرج صوتاً دون النباح من قلة صبره على البرد. وفي المثل كما حكى سيبويه: شرٌّ أهر ذا ناب. وقيل الهر: العقوق. وذُكر أنَّ البرَّ الإكرامُ والهرّ الخصومةُ. والهِرُّ: السِّنور"[١١].

أما صورة الهر كما انطوت عليها كتب التراث العربي فقريبة من المعنى الذي وضحته المعجمات إذ ارتبطت بالقبح والشناعة فساق ابن طيفور على لسان أعرابية تهجو زوجها وزوج أختها بيتاً تقول فيه[١٢]:

أسيودُ مثل القرد لا خير عنده

وآخر مثل الهر لا حبذاهما

وقال أبو البلاء الطهوي. وكان من شياطين العرب يصف الغول الذي زعم انه قتله[١٣]:

إذا عينان في وجه قبيح

كوجه الهر متقوق اللسان

وورد في "ثمار القلوب للثعالبي:" ويقال إنّ الكلب ألفُ من الهر: لأنّ الكلب يألف الإنسان والهر يألف المكان[١٤]. وذكر الزمخشري:" أنّ الهر يجمع العض بالناب والخمش بالمخالب. وليس كل سَبُع كذلك[١٥]. ويربط بعض الشعراء بين الهر والميل إلى الأذى والعدوان والفساد يقول أبو الفرج الأصفهاني في صفة الهر[١٦]:

يالحدب الظهور وقعص الرّقاب

لدقاق الأنياب والأذناب

خلقت للفساد منذ خلق الخ

ق وللعيث والأذى والخراب

ومؤدى القول أنّ الهر في التراث الأدبي واللّغوي العربي يمثل أيقونة تجسد صورة تحيل على القبح والأذى والعدوان. وعليه فإنّ توشح قصيدة ابن العلاف بصورة هر يحيل في حقيقة الأمر على رمز ليس ببعيد من تلك الأيقونة. أعني أن المخصوص بالرثاء هنا لم يكن أثيراً لدى الشاعر وهذا ما يفسّر أكثر الدلالات اللّغوية التي تشف عن النقد اللاذع والتشفي. أما الدلالات التي يستشف منها التعاطف والتأسف فهي من غير شك تخص شخصاً أخر غير الذي رمز له بالهر. من أجل ذلك فالخطاب في القصيدة يتجه إلى شخصين لا إلى شخص واحد.

٢-٣ الرمز والأيقونة:

وبالنظر إلى علاقة ابن العلاف بابن المعتز لا نكاد نعثر على ما يدل على كره قد استحكم بين الرجلين. وإذا كان الهرّ على نحو ما يشير الصفدي في خبره الأنف. ويتر به النّقاش. كنايةً أو رمزاً لابن المعتز فإنّ ذلك يقتضي أن تنطوي المرثية على علامات أو ثيمات تكشف عن ذلك بصور خفية أو ظاهرة. أعني أن تغلب عليها ألفاظ التأسف والتوجع والحزن. لا بل استنكار الخطب الذي ألمّ بصديقه. وتتراجع بالمقابل الألفاظ الدالة على النّقد واللّوم والتعنيف والتشفي. لأنّ الهالك ضحية. ولا معنى للعتاب هنا إذا كان ينعى فيه معنى الصداقة والأخوة بحسب ما ذهب إليه النقاش على نحو خاص. ولبيان مدى هيمنة الوحدات اللّغوية التي جاءت في مصلحة هذا الترجيح لا بُدَّ من تصنيف الوحدات اللّغوية النصية بحسب إحالتها الدلالية وفق الجدول الآتي.

البيت	العلامات الدالة على التأسف والوجع والحزن	العلامات الدالة على التعنيف واللوم والتشفي
ب١	فارقتنا - لم تعد - بمنزل الولد	
ب٢	هواك - مدة من المدد	
ب٣	تمنع عن الأذى - تحرسنا	
ب٥		تلقاهم بلا عدد
ب٦		لا عدد كان معك
ب٧	لا ترهب - لا تهاب	
ب٨	أمرك على سدد	لا سداد لهم
ب٩		لم تكن للأذى بمعتقد
ب١٠		حمت حول الردى
ب١١		الزمان استقاد منك
ب١٢		رماك الردى
ب١٣	قلبي عليك مرتعدا	
ب١٤		تخرج الفرخ غير متئد
ب١٥		تطرح الريش
ب١٦		أطمعك الغي
ب١٧		وقعت
ب١٨		خاتلوك واجتهدوا
ب١٩		من يَصِدْ يُصدِ
ب٢٠		سقيت الحِمام
ب٢١		شفوا بالحديد أنفسهم منك
ب٢٢		لم ترث لصوتها الغرد
ب٢٣		أسرفت غير مقتصد

ب٢٤		أذاقك الموت
ب٢٥		يقتلون طاغية
ب٢٦		فلو أكبوا على الترامط..
ب٢٧		يا من لذيذ الفراخ أوقعه
ب٢٨		ما كان أغناك عن تسورك البرج
ب٣١		يأكلك الدهر
ب٣٥		جيدك للذبح
ب٣٦		تراك مضطرباً
ب٣٧		لم تقدر على حيلة
ب٣٩		مت ذا قاتل بلا قود
ب٤٠		عيشك النكد
ب٤١		عشت بخير
ب٤٢		تقلبت بين فراخهم
ب٤٤		كنت في نعمة
ب٤٥		آين بالشاكرين للرغد
ب٤٦		كنت بددت شملهم فاجتمعوا...
ب٤٧		فتتوا الخبر في السلال
ب٤٨		لم يبقوا لنا على سبد
ب٥٠		مزقوا من ثيابنا جدداً
ب٥١		اذهب من البرج شر مفتقد
ب٥٢		لم تخف وثبة الزمان
ب٥٥		عاقبة البغي لا تسام

٤-٢: تحليل الجدول ومحاولة تعيين المرموز إليه:

أ - الهر وابن المعتز:

تنحاز القصيدة في معظم دلالاتها إلى اللوم والعتاب الشديد والتشفي بصورة تشي بأن المقصود بالهر هنا ليس ابن المعتز. وتعضد هذا الافتراض مؤشرات لغويّة واضحة الدّلالة كما هو الشأن في "ب٦" (**لا عدد كان معك**). فهذه إشارة تخالف الواقعة التاريخية التي تذكر أنّ جماعة من الأجناد والكُتّاب اتفقوا مع ابن المعتز لخلع المقتدر ففعلوا. بمعنى أنّ مع ابن المعتز عدداً من الجنود ولم يكن وحيداً لمّا وثب على الخلافة. وفي ب"١٩" (**من يصد يصد**). و"ب٢٥" (**يقتلون طاغية**) ما يخالف سيرة ابن المعتز الذي كان حَسَنَ السيرة محمودَ الخلال إذ لم يُعرف عنه الغدر والطغيان. وفي "ب٢١" (**شغوا بالحديد أنفسهم منك**) و"ب٣٥" (**جيدك بالحديد**). ما يخالف الواقعة التي أودت بابن المعتز إذ لم يقتل بالسيف وانما رجم بالحجارة.

إنّ لفظ الهر في ضوء الدلالات غير المعينة هنا يستحيل أيقونة وليس رمزاً بحال من الأحوال: لأن الرمز مبني على التواضع. والأيقونة تتشكل في النّص من خلال ثيمات وعلامات يؤسسها السياق. وعليه فإنّ ما تحيل عليه الأيقونة غير ابن المعتز بالتأكيد. وهذا لا يعني أنّها تتخلى عن رمزيتها. فهي من غير شك ليست في رثاء هر. وهنا لا بُد من النّظر إلى الاحتمال الآخر بحسب الروايات التي تقدم ذكرها. أعني أنّها إما في غلام ابن العلاف وإما في المُحسن بن أبي الحسن بن الفرات.

ب- الهر وغلام ابن العلاف:

قصيدة ابن العلاف متدرجة من حيث دلالاتها. إذ تمثل أبياتها الأربعة التي جاءت في بدايتها سطح الموضوع وظاهره. ويمكن إجمال ما تشي به تلك الأبيات بمقولة يدركها القارئ بغير جهد: أنّ هره الأثير ذبح بعد أن تسلق أبراج الحمام. فخلّف ذلك في نفسه ألماً وحسرة إذ أودى به بعد أن كان عنده بمقام الابن الذي يعينه على قضاء حاجاته. وذلك بحسب إشارته في "ب١" (**وكنت منا بمنزل الولد**). والواقع أنّ ثمة مؤشراً في دلالة هذه العبارة ينفي المشاركة بين الهر والغلام. لأن الهر لا يكون بمنزلة الولد. لذا فالعبارة أعلق بالغلام. ثم تأتي إشارة مماثلة في "ب٢" (**وكيف ننفك عن هواك**). والهوى هنا مرتبط بالغلام أيضاً. لأنه لا ينعقد هوى بين الرجل والهر. وفي "ب٣" يأتي قوله (**تمنع عنا الأذى**). وهي إشارة عائمة تبدو قوية في دلالاتها على عمل الهر. ويريد أنه يمنع عنه أذى الفئران. وتصح دلالاتها على عمل الغلام الذي يمكن أن يحرس المنزل ويحميه. وفي "ب٤" تأتي إشارة خاصة بالهر (**تخرج الفأر من مكامنها**). وليس للغلام فيها نصيب. مع إمكانية قيام الغلام بهذا العمل كأن يوكل إليه تصيد الفئران في المنزل. مع أنّ هذا العمل منوط بالهر عادة. وعليه تبدو الدلالات في مقدمة القصيدة محيرة ماكرة لأنها تستهدف التعبير عن مستويين: الأول ظاهره هر يبالغ الشاعر في التوجع على مصابه. فيرى فيه ابناً باراً ومعشوقاً أثيراً وحارساً أميناً وخادماً مطيعاً. والثاني يوحي بالاشتراك والتماثل والمشاكلة: لأن الغلام يحسن أن يكون كالولد والمعشوق والحارس والخادم.

وتصرح القصيدة في "ب٣٤" بوضوح أنّ الهر (الغلام) لما ذبح حشي جلده تبناً. وفي ذلك تأكيد للحكاية القائلة بأنّ الغلام لمّا عشق جارية علي بن عيسى انكشف أمرهما فذبحا وحشيت جلودهما تبناً. يقول:

ولا تبين حشو جلدك عن

ـد الذبح من طاقة ومن جلد

وهذا التصريح في ضوء كثرة العلامات المغايرة يتحول دلالة خادعة. أو هو تمويه للقصد الحقيقي ليكون بعيداً عن الشبهة التي يمكن أن تنجم من خلال تناوله موضوعاً محظوراً يعود عليه بكثير من المتاعب.

من أجل ذلك نرى أن أيقونة (الهر) ترتد إلى شخص آخر نرى أنه المحسن بن أبي الحسن بن الفرات الذي ترسم له المصادر صورة بنهاية الرداءة والسوء لسبب يتصل بطبيعة الأيقونة المخالفة للرمز. وذلك لحاجتها إلى جملة من الدلالات المتضافرة لتكون قابلة للتعيين. وما جاء في "ب٣٤" من أمر الجارية والغلام يستحيل معنى عارضاً لافتقاره إلى علامات مماثلة. إذ ليس هناك اشتراك في الدلالات النصية يشي بأنّ الكلام على مصير الغلام والجارية أمر محظور يدعو لكل هذا الكتمان.

ج - الهر والمحسن بن أبي الحسن بن الفرات:

كان المحسن بن أبي الحسن بن الفرات كما يذكر النويري" وقحاً ظالماً سيء الأدب ذا قسوة شديدة. وكان الناس يسمونه الخبيث بن الطيب"[٢٣].

وتروي المصادر أنّه أهلك خلقاً كثيراً. ولم يف بحقوق من أحسنوا إليه كعلي بن عيسى الذي كان قد أعطاه في أثناء ولايته عشرة آلاف درهم. فتام في أيام نكبته بالتنكيل به وتجريده من أمواله ثم قتله. وقد أتخن في القتل في الزمن الذي كان فيه أبوه وزيراً للمقتدر. فحين ثار نفر من القرامطة وقطع طريق الحج على الناس وأوشكت أمور المقتدر أن تنحل بادر المحسن إلى أحد سجون بغداد فقتل من كان محبوساً فيها لأنّه أخذ منهم أموالاً جليلة فخاف أن ينكشف أمره[٢٤].

ولم ينج الوزير ابن الفرات من أثر ثورة القرامطة هذه. فاتهم بأنّ ثمّة علاقة كانت خفية بينه وبينهم. وقد انكشفت للناس فقيل في بغداد آنذاك: " القرمطي الصغير قتل المسلمين بطريق مكة. والقرمطي الكبير قتل المسلمين ببغداد[٢٥]". يريدون بالقرمطي الكبير ابن الفرات وقد شنّع النّاس عليه وثاروا ضده فكسروا منابر المحاريب. فضعفت نفس ابن الفرات عقب ذلك فحضر إلى المقتدر ليأخذ منه أمرَ ما يقطعُ به[٢٦].

ويبدو أن المحسن بن أبي الحسن بن الفرات كان سبباً فيما آلت إليه أمور أبيه من سوء: ذلك لأن أباه قد تولى الوزارة في عهد المقتدر ثلاث مرات. الأولى: بعد مقتل ابن المعتز من سنة ٢٦٩-٢٩٩هـ. إذ بدا فيها من أصحاب الرياسة والسياسة. فأسهم في إخماد الفتنة في بغداد بعد مقتل ابن المعتز. وقد روي أنّ أول ما ظهر من محاسن ابن الفرات لما استوزره المقتدر أن صندوقين حُملا إليه من بيت ابن المعتز" فقال أعلمتم ما فيهما؟ قيل: نعم جرائد بأسماء من بايعه. فقال لا تفتحوها. ودعا بنار فطرح الصندوقين فيها. فلما احترقا قال: لو فتحتهما وقرأت مافيها فسدت نيات الناس بأجمعهم علينا واستشعروا منا مع ما فعلناه. وقد هدأت القلوب وسكنت النفوس"[٢٧].

والثانية: من سنة ٣٠٤ - ٣٠٦هـ والثالثة من سنة ٣١٢-٣١٣ هـ. وكان كما يذكر ابن خلكان قد أطلق يد ابنه المحسن في وزارته الثالثة فكانت بذلك نهايته. وكان ابنه المحسن قد لاذ بالفرار فاختبأ عند حماته في الرقة حين عزم والده ابن الفرات على التنحي عن الوزارة وتمائله لأمر المقتدر بعد ثورة القرمطي. ثم انكشف أمر المحسن بطريق

امرأة كان قد قتل زوجها. فسلم للمقتدر بعد ذلك.

ومن الواضح هنا أنّ سياق حياة المحسن على قدر كبير جداً من التماثل مع دلالات أغلب البنى النصية في القصيدة. إذ هو المقصود بكل عبارات التشفي والتعريض في النص. وما يكشف مضمرات النص في هذا الأمر كثير من الروايات التي تطبق على أن المعني إنما هو المحسن دون غيره. يشاركه في الصفات المناقضة أبوه. وفي هذا السياق يروي النويري عن الصاحب بن عباد قوله: " أنشدني أبو الحسن بن أبي بكر بن العلاف، وهو الأكول المقدم في الأكل في مجالس الرؤساء والملوك قصيدة أبيه في الهر. وقال إنما كنى بالهر عن المحسن ابن الفرات أيام محنته لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه"[١٢٠].

والسؤال المهم هنا إذا كان المحسن هذا طاغية وظالما وسيئا فقيل عنه " الخبيث بن الطيب" فلماذا رثاه ابن العلاف. وليس هنالك نبأ عن صداقة أو وشيجة قربى بينهما. ثم إذا كانت القصيدة كما بينا آنفا أقرب ما تكون إلى التشفي والعذل الشديد إذ أودي بالمحسن غير مأسوف عليه عند الخاصة والعامة فما دواعي الكتمان. وما وجه الخطورة على ابن العلاف أن يقول صراحة: إن المحسن لقي جزاءه الذي يستحق وتنتهي القضية. ولاسيما أن القصيدة ترجح هذا الجانب في علامتها التي جاءت في "ب ٩"(ولم تكن للأذى بمعتقد) :أي أنّ المحسن حين ألحق الأذى بالناس لم يحسب حساباً لعواقب ظلمه. وفي"ب ١٥" (وتبلغ اللحم بلع مزدرد):أي كان المحسن يأكل أموال الناس بالباطل. وفي"ب ١٩" (ومن يصد يصد): وهذه كانت صفة في المحسن الذي كان يتصيد الناس ويستولي على أرزاقهم وينتهب أموالهم ويثخن في قتلهم. وقد آل به المصير إلى أن ذبحه رجال المقتدر ثم ألقي رأسه بين يدي أبيه. وفي ذلك مؤشر دال على أنّ ابن الفرات الذي أطلق العنان لولده في أثناء توليه الوزارة لم ينهه عن غيه ولم يحاسبه فكان كالمشارك له في الطغيان. وفي"ب ٢٣"(أسرفت غير مقتصد): وهنا يتجه الخطاب للمحسن بصورة واضحة.

إن أهمّ أمارة على أن المخصوص بالقصيدة المحسن ما ورد في"ب٣٤" (عند الذبح) وفي"ب٣٥"(جيدك للذبح): إذ تستحيل هاتان الأمارتان قرينتين تدلان على الطريقة التي قتل بها المحسن وأبيه إذ ذبحا كما تذبح الخراف.

وعليه فإن تعيين القرينة يحول الأيقونة إلى رمز في ضوء المؤشرات الكثيرة الدالة على أنّ الهر ينحصر في دلالته الرمزية بين المحسن وأبيه ابن الفرات.

وملامسة دلالة الرمز شخصية المحسن هنا لا تعني أن ذلك الترجيح يسلم من الشك بل على العكس تماماً: لأن في القصيدة دلالات كثيرة مناقضة كالعبارات التي تدل على تعاطف الشاعر مع الهر. فإذا كان المحسن هو المقصود بالهر وكان سيئا وقحا فما معنى أن يتعاطف معه ابن العلاف؟

الحق أنّ جملة من الدلالات المتناقضة. كما ألمحنا سابقاً. اندرجت تحت رمزية الهر. تماماً كالتناقض بين المحسن وأبيه. وعليه يمكن إرجاع الصفات الإيجابية التي جاءت بها القصيدة إلى ابن الفرات. والصفات السلبية إلى ابنه المحسن. وعليه فإنّ الهر هنا جانبين من حيث الدلالة إذ المحسن كان سبباً في مصاب أبيه وإليه يعزى معنى النقد والتشفي. وكذا يمس النقد أباه مساً رفيقاً لأنه أطلق يد ابنه المحسن في أثناء وزارته

الثالثة. والجانب الآخر ينحاز في دلالته إلى ابن الفرات وهو الجانب المتصل بالرثاء والتأبين على نحو ماتظهره القصيدة في معظم أبياتها.

جـ - الهر وابن الفرات:

رمزية القصيدة متعددة الأوجه. فهي كما أشرنا من فك الجدول السابق تجمع بين نمطين متغايرين من العلامات.

تجمع التأسف إلى التشفي، والحزن إلى العتاب، والتوجع إلى النقد اللاذع. فإذا كان المخصوص بالتشفي والعتاب والنقد المحسن بن أبي الحسن ابن الفرات. فإن المخصوص بالتأسف والعتاب والتوجع ابن الفرات نفسه. وبالعودة إلى الجدول تتعين تلك الدلالة بوضوح.

كان ابن الفرات على نحو ما تصور المصادر التاريخية كثير البذل للمحتاجين فقد أجرى كثيراً من أمواله لمساعدة أهل العلم والمتدينين والفقراء، ونال الأدباء عنده حظوة. ومن الطبيعي أن يبكيه كل معتف وكل طالب معروف. ومن أجل ذلك قيل عنه "الطيب" وقيل عن ابنه المحسن "الخبيث" فابن الفرات كان "كريما ذا رياسة وكناية في عمله. وكان مصطنعا للنّاس. فإن جميع كتابه الذين اصطنعهم صاروا وزراء. وكان يجري على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوتات والفقراء[٢٢].

والقصيدة بكلمة واحدة جمعت في أوصافها ما يخص الطيب وما يخص الخبيث. ففي "ب١ (وكنت منا بمنزل الولد): عبارة تختص بالدلالة على ابن الفرات الذي كان كثير الإحسان للناس. وفي "ب٢" (هوالك): إشارة إلى أن كثيراً من النّاس تعلقوا به وأحبوه. وفي "ب ٣" "(تمنع عنا الأذى): لكونه من أولي الأمر الوزراء الذين تقع عليهم مسؤولية حماية الناس.

ولعل الإشارة الواردة في "ب ٨" شديدة الوضوح لاتصالها بمحنة ابن الفرات الذي اتهم بأنه كان على صلة بالقرامطة. وابن العلاف فيما يبدو كان ينكر ذلك فقال:

وكـــان يـجـري ولا ســـداد لـهـم

أمـــرك فـي بـيـتـنـا عـلـى ســـدد

بمعنى أن تلك العلاقة كانت ذريعة للتخلص من ابن الفرات. وفي قرارة نفس ابن العلاف شك بمصداقية هذه العلاقة. وهذا هو موجب الكتمان والتستر والاعتماد على الرمز والكناية هنا. ومما يؤكد هذه الدلالة قرائن أخرى وردت في متن القصيدة منها:

كـأنـهـم يـقـتـلـون طـاغـيـةً

كـــان لـطـاغـوتـه مـــن الـعـبـد

فـلـو أكـبـو عـلـى الـقـرامـيـط أو

مـالـوا عـلـى زكـرويـه لـم يـزد

ففي البيتين صورة من صور الاحتجاج على مقتل ابن الفرات. فقوله: (كأنهم يقتلون طاغيةً) ينفي عنه صفة الطغيان لأنه قال: (كأنهم). فقيل ابن الفرات كان بسبب علاقته بالقرامطة. وهذه ذريعة ملفقة عند ابن العلاف يشفُ عنها استحضاره ذكر القرامطة في البيت الثاني. لم تكن تلك الإشارة مصادفة: لأن نجم ابن الفرات هوى بعد أن قطع القرامطة طريق مكة على الحجيج وكان منهم نفر من أقارب المقتدر. وقد حُمِّل ابن الفرات مسؤولية ذلك. وهنا نلاحظ أن القصيدة برمزيتها فيها استنكار واحتجاج على مقتل ابن الفرات لأنه كان من أهل الرئاسة والكرم والإحسان. كما فيها

تشف بما أصاب المحسن الذي طغى وتجبر. وفي الوقت نفسه توشحت بقناع الهر خوفاً من أن يدرك المقتدر مقاصد ابن العلاف. لأنه كان نديماً له. وعليه فإن الراجح في رمز الهر أنه عائد على ابن الفرات من جهة وعلى ولده المحسن من جهة أخرى.

٥-٢، تعيين الرموز وتأويلها بما يوضح دلالة الأيقونة:

يختزن النص عدداً من الرّموز التي تحوج إلى تعيين ما ترمز إليه. ومن ثم إيجاد ما هو مشترك بين المرموزات والأيقونة (الهر) التي قلنا إنّها ترمي إلى المشابهة مع ابن الفرات وابنه المحسن بحسب مجمل العلامات النصية التي تم إحصاؤها فيما سبق:

أ. لعل أهم الرموز التي انطوت عليها القصيدة ما جاء في ب ٢٦:

فلو أكبو على القرامط أو

مالوا على زكرويه لم يزد

فزكرويه كما تعينه المصادر هو أبو القاسم يحيى القرمطي صاحب الشامة. وقد خرج أيام المكتفي "بجهة السماوة منة تسع وثمانين ومئتين. فقوي أمره وأشتدت شوكته ثم قتل على مقربة من دمشق. فخرج أخ له فصار يعترض الحجاج . . . فبعث إليه الخليفة حمدان بن حمدون التغلبي فآل الأمر أن قتل وصلب ببغداد فرجمه الناس"[٢٥]. وأما القرامطة فنسبة إلى" قرمط بن الأشعث لأنه كان يقرمط في خطه أو مشيه أي يتاربه. وكان يدعي أنه داعية المسيح وأنه الكلمة والدابة المذكورة في القرآن والناقة وروح القدس والمهدي المنتظر وزكريا.."[٢٦].

وثمة صلة كما وضحنا آنفاً بين ابن الفرات والقرامطة. وقد استغلت من قبل المقتدر للتخلص منه. وابن الفرات نفسه كان يتهم بعض خصومه بالقرمطية أمثال الوزير علي بن عيسى كما يشير ياقوت في معجمه[٢٧].

وجهة الدلالة تدور حول الواقعة التي أودت بابن الفرات وابنه المحسن لأنهما قتلا بسبب صلتهما بالقرمطية. غير أن القصيدة كما هو واضح تميل إلى الإشارة بأن ذلك من الأسباب الملفقة. فقتل المقتدر ابن الفرات وابنه أشبه بترةٍ أو قصاص اقتصه منهما. فلو وقع زركويه نفسه بين يديه لم يفعل به أكثر مما فعله بالوزير وابنه.

فزركويه بمروقه على الدين وخروجه على السلطان لم ينل العقاب الذي لحق بابن الفرات. وهذا يبين فداحة الخطب الذي ألم بالمرثي. وهو معنى وإن لم يكن مصرحاً به إلا أن ذكر القرامط وزركويه في هذا الموضع يشف عنه ويستدعيه. ليتحول لفظ زركويه وهو رمز للطغيان هنا إلى أيقونة ترجحها العلامات النصية المماثلة لتجعل من ابن الفرات نظيراً للسنور الضعيف الذي لحق به عذاب أعظم مما كان قد ارتكبه من أخطاء.

ب: في ب ٣٥ ترميز بوساطة الاقتباس من القرآن الكريم في قوله:

كأن حبلاً حوى بحوذته

جيدك للذبح كان من مسد

فإشارته: (حبلاً من مسد) اقتباس من قوله تعالى: (في جيدها حبل من مسد)(المسد٥). غير أنّ ذلك الاقتباس يشي بغير المطابقة. أي ليست هنالك مطابقة بين كون الوزير قد ذبح ذبحاً واستدعاء تعبير الحبل. وقد دلت كلمة (الذبح) في البيت الأنف على شرود دلالة (حبلاً حوى جيدك). لأن المرثي لم يشنق بحبل

مقتول. وإنما ذبح كما تذبح الخراف على نحو ما صورت المصادر التاريخية. ومع ذلك فإن الاقتباس القرآني في هذا الموضع يثير إلى عظم فعل القتل. وهذه هي وظيفة

التشبيه هنا الذي يُحمل على جهة التمثيل. إذ المآل الذي آلت إليه أمور ابن الفرات من الخسران لا يفوقه خسران سوى خسران أبي لهب الذي لن تغني عنه أمواله في آخرته وهو يهوي في الجحيم. وهنا يبدو التعريض الصريح بابن الفرات وابنه على ما أشيع من إحسانه للناس. إلا أنه كان في حياته يدخر المال الكثير. وكذا ابنه المحسن الذي رأى في جمع المال حصناً منيعاً يسور به حياته. غير أن ذلك كله لم يغن شيئاً في أثناء محنته.

ج - ويأتي الترميز بالتمثيل أيضا في قوله في ب ٤٨ :

فلم يبقُوا لنا على سُبد

في جوف أبياتنا ولا لبد

ليدل على ما كان يقدمه ابن الفرات في حياته للفقراء والمحتاجين والمتعلمين والعلماء من ذوي الحاجة ومستحقي الصدقات. إذ خلت بيوتهم بعد موته من القوت. معبراً عن ذلك بالمثل (ماله سُبد ولا لبد) فالسبد كما يقول ابن قتيبة الشعر والوبر يعني الإبل والمعز. واللبد:الصوف ويعني الغنم[٢٧].

د - ومن ضروب الترميز بالتمثيل قوله ب ٥٣ :

أخنى على الدار فيه بالأمس

ومن قبلها أخنى على لبد

إذ تتركز الإشارة على حال من التشابه بين دار المرثي التي أخنى عليها الدهر ولبد آخر نسور لقمان. الذي يشكل في التراث العربي جانباً تنحل فيه عناصر مختلفة منها ما هو ثقافي تحول إلى رمز وأسطورة ومنها ما هو ديني وتفصيل ذلك ما عرضه اليوسي في قوله :" أنّ عاداً لما بعث الله إليهم نبيهم هوداً فدعاهم فكذبوه فاحتبس القطر ثلاث سنين حتى جهدوا . فأوفدوا وفداً إلى البيت الحرام يستسقون لهم فيهم لقمان بن عاد ... وفيهم رجل يقال له يزيد بن سعد ... فقال لهم: والله لا تسقون حتى تطيعوا نبيكم فلم يجيبوه إلى ما قال. وقالوا لمعاوية بن بكر احبس عنا يزيد لا يدخل معنا مكة وهو على دين هود. فانطلقوا حتى دخلوا مكة وخرج يزيد وراءهم قبل أن يدعو بشيء فقال: اللهم إن كان هود صادقا فاسقنا فقد هلكنا. فأنشأ الله سحائبَ ثلاثاً: بيضاء وحمراء وسوداء. ونودي من السَّحاب قيل: اختر لنفسك ولقومك قال: اخترت السوداء: لأنها أكثر السحاب ماءً. فنودي اخترت رماداً لا يبقي من آل عاد أحداً. فساق الله السحابة السوداء بما فيها النقمة على عاد...وسأل لقمان أنْ يُعمَّر فخيِّر بين عمر سبع بقرات سمر. ومن ظباء عُفر. في جبل وعر. لا يمسها القطر. وبين سبعة أنسر. كلما هلك نسر خلف بعده نسر. فاختار النّسور. فكان يأخذ فرخ النّسر من البيضة فيغذيه حتّى إذا هلك أخذ آخر. حتى بلغ السابع وهو لبد فكان يغذيه حتّى هرم ولم يستطع النهوض فأيقن حينئذ لقمان بالموت"[٢٨].

وقد أنشد لبيد في ذلك[٢٩]:

ولقد جرى لَبدٌ فأدرك جريهُ

ريبُ الزّمان وكان غير مشقل

لما رأى لبدٌ النسور تطايرت

رفع القوادم كالفقير الأعزل

من تحته لقمان يرجو نهضةً

ولقد يَرى لقمان ألا يأتلي

إنّ حكاية لقمان مع الأنسر شبيهة بحكاية ابن الفرات مع ولده المحسن.فكما رأى لقمان أن امتداد عمره لا يكون إلا بحياة الأنسر. من أجل ذلك كان يأخذ الواحد منها حالما يخرج من البيضة فيغذيه ويحوطه بالرِّعاية ليحفظ له البقاء أطول فترة ممكنة. كذلك كان ابن الفرات يرعى بنيه وعلى رأسهم المحسن. فحين زلت قدمه في وزارتيه الأولى والثانية أطلق يد ولده المحسن في أثناء توليه الوزارة الثالثة ليكون عوناً له إذا ما زحزح عن وزارته الثالثة فخرج منها خالي الوفاض. وهذه حال لحقت بكثير من ذوي الشأن والنفوذ قبل توليه، كالذي حدث مع أبي إسحاق الصابئ كاتب الوزير أبي محمد المهلبي الذي جرده عضد الدولة من أمواله وطرحه في السجن. ولما خرج منه لم يجد ما يستعين به على قضاء حاجاته. يقول في رسالة وجهها إلى الصاحب بن عباد: "فإن نوب الدَّهر تتردد مذ سنين عليَّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق، منيخةً بنوازلها، ملقيةً بكلالها، كالحةً بوجوهها، كاشرةً عن أنيابها، لتعاقب الأيدي الوالية علينا، وتدرجها في الإساءة إلينا، وتزايدها في الفظاظة بنا، وتجاوزها المنزلة إلى المنزلة في الاستئصال لأحوالنا، وقد توفر قسطي في تأثيرها بحسب ضني بعرضي، وصوني لنفسي، وبذلي دونها مالي، ووقايتي إياها بما ملكت يدي حيث لم أسأل المعونة أحداً، ولا سمحت أن أستميح مسوِّدا ولا سيداً، راجعاً إلى شيء مما يرجع إليه الناس من موروث تالد، ومكسب طارف، حتى انتهت مغارمي إلى نحو خمس مئة ألف درهم، لم يبق لي بعدها ضيعةٌ ولا منزلة ولا باطن ولا ظاهر"[٣].

ومثل ذلك ما حدث مع الوزير علي بن عيسى الذي تولى ابن الفرات الوزارة بعده وكان المحسن قد جرده من أمواله ثم قتله. ولهذا كان ابن الفرات يرى أنّ استمرار حياته منوطٌ بقوة ولده المحسن من بعده، كما كان يرى لقمان استمرار حياته بقوة أنسره ولاسيما لبد. وكذا نهاية الرجلين كانت متشابهة. أعني نهاية لقمان ونهاية ابن الفرات. إذ أبصر كلّ واحد منهما نهايته قبل موته. فلقمان تراءت له النهاية حين رأى نسره قد تثاقل وهرم ولم يعد يقوى على الطيران. وابن الفرات بدت له نهايته حين ذبح ولده المحسن ثم ألقي برأسه بين يديه. ومن هنا يتحول رمز النسر إلى أيقونة دالة على نهاية ابن الفرات بطريق التمثيل.

٣: الموضوعات المماثلة:

لابن العلاف مقطعان يذكر فيهما الهر إضافة لقصيدته المشهورة التي وقفنا عليها. الأولى يقول فيها:

يا رُبَّ بيت ربَّه
فيه تضايق مستقره
لما تكاثر فأره
وجفاه بعد الهجر هره
وسعى إلى برج امرئ
فيه الفراخ كما يسره
ظن المنافع أكلها
فإذا منافعها تضره

ويعزو الشاعر في هذه المقطعة سبب تسلق هره أبراج الحمام إلى الضيق وإلى الجفاء. وهذه الدلالة مخالفة تماماً لما جاء في قصيدته السابقة التي تكلم فيها على ألفة انعقدت بينه وبين الهر وقد دعاه ذلك لجعله بمقام الولد. ويقول في مقطعته الأخرى:

يا هر بعت الحقّ بالباطل
وصرت لا تصغي إلى عاذل
إذا البيت البرج من خارج
طارت قلوب الطير من داخل
علماً بما تصنع في برجها
فهي على خوف من الفاعل
قد كنت لا تغفل عن أكلها
ولم يكن ربك بالغافل
فانظر إلى ما صنعت بعد ذا
عقوبة المأكول بالآكل
مازلت على مسكين مستقتلاً
حتى لقد منيت للقاتل
قد كنت للرحمة مستأهلاً
إذ لم يكن منك بمستأهل

وهذه المقطعة مرمزة وفي الموضوع نفسه الذي خصصه ابن العلاف لرثاء هره. ومن الملاحظ أن هاتين المقطعتين تخلوان من التعاطف ليستحيلا ضرباً من اللوم والتقريع والتشفي. وعلى كل حال فهما يعضدان الترجيح الذي ذهبنا إليه إذ صورة الهر هنا أيقونة تحولت إلى رمز لابن الفرات وابنه. وهذا هو فحوى الكناية التي لاحظها القدماء في القصيدة. ومن الطريف أن طريقة ابن العلاف في الاستعانة بالرمز والكناية والوشاح قد استمالت عدداً من الأدباء الذين نسجوا على منوالها كما صنع الاستاذ ابن العميد في قوله[٢٠]:

يا هر فارقتنا مفارقة
عمت جميع النفوس بالثكل
لو كان بالحادثات لي قبل
إذا أتاك الصريخ من قبلي
يا مثلاً سائراً إذا ذكر الـ
ـحسن تركت الحسان كالمثل
وقيل هل تفتديه إن قبل الدّ
هر فداء فقلت حيهل
أفديه بالصفوة الكرام ومن الأ
خوان دون الأخدان والخلل
بل بمحل الكرى ومعتلج الـ
ـفكر وحب القلوب والمقل
بل بسكون الوجيب يجلبه الأ
من إلى قلب خائب وجل
بل بحلول الشفاء بجنيه الصـ
ـحة بعد الأوصاب والعلل
بل ببلوغ المنى وقاصية الـ
ـبغية عفواً ونهبة الأمل

وواضح أنّ قصيدة ابن العلاف في ظاهرها وفي رمزيتها استحالت سياقاً تركت آثارها فيما بعد تلاها من شعر في هذا الموضوع.

٤. الخاتمة:

بعد العرض الذي تقدم لابد من تدوين جملة من الملحوظات لتكون بمنزلة النتيجة التي آل إليها هذا المبحث على النحو الآتي:

١ - من الواضح أنّ دالية ابن العلاف المشهورة في رثاء الهر فيها ثراء دلالي. وهي من القصائد النادرة في الأدب العربي التي تحلت بكثافة إيحائية هامة. ومع أنّ طرافة الموضوع كافية للصعود بها لتحتل حيزاً مكيناً في الذاكرة الأدبية. إلا أنّ ثنائية الظاهر والباطن قد شحنت طاقاتها الكنائية لتغدو على جانب كبير جداً من الخطورة والأهمية. وتكمن تلك الأهمية في تعدد وجوهها. وهنا وجد الأدباء أنّ التعلق بظاهرها يكفي لجعلها فريدة في باب رثاء الحيوان. وهذا أمر حقيقي لأن شاعراً في تاريخ العربية لم يقف في قصيدة تجوز في أبياتها الخمسين على رثاء حيوان لا يشغل كل هذه الأهمية في حياة الإنسان. فالهر بضعفه وما يمكن أن يؤديه من معونة لاينهض موضوعاً شعرياً بهذا الحجم الذي جاءت به قصيدة ابن العلاف. ثم إن أحداً لا يصدق بأن الألفة التي انعقدت بين الشاعر والسنور قد بلغت مبلغ الهوى. إذ التعلق الشديد بالهر يشي بأن وراء الأمر أمراً أعظم من أن يكون الموضوع الضخم الذي حملته القصيدة في هر كان عند أهله يتصيد الفئران ثم سولت له النفس ليسطو على برج الحمام فكان في سطوه هذا ختام حياته. والقصة من حيث الظاهر لا تحتاج إلى قصيدة بهذا الحجم كما أن الحادثة لا تكفي لشحن نفس شاعر مثل ابن العلاف

لينظم مطولته في هر مقتول. إذن هذه مجرد أقنعة تخفي رموزاً لا يحسن التصريح بها.

٢ - القصيدة لها حظ وافر من التخييل. بمعنى أنها تترك في نفس المتلقي سؤالاً محيراً لماذا الهر. ومن هو الهر الحقيقي الذي بعث مقتله في نفس الشاعر كل هذه الآلام لينظم قصيدة فريدة من حيث ما صرحت به أو رمزت إليه؟ إن الخيال هو الشعر كله. أو إنه أول ما تتفتق به القريحة وآخر ما يبقيه الزمان من ظلال القصيدة التي تتراءى من وراء سجف لا تتناهى من الأضواء. وهو العنصر المتبقي من كل تجربة في الفن تتجسد في تصاوير ورموز باقية تشبع نهم القارئ إلى الجمال السري العميق الغامض. ومن ثم يأتي التخييل الذي تحصله النفس من بقايا الصور التي تنثرها القصيدة في محاولة لانبعاثات تدب فيها الروح مع الدلالة المتجددة. وهنا يغدو قلب القصيدة ممثلاً بالرمز. ومجال التخييل ممثلاً بالمرموز له. أعني أنّ جمال القصيدة يترجح بين الهر والمحسن وابن الفرات وهؤلاء جميعاً كانوا موضوعاً لقصيدة ابن العلاف بصورتها الظاهرة وفي قراراتها على حد سواء. ثم يجيء فعل القراءة في كل زمن ليسلط الريح العاتية على النصر لتتحرك بواطنه وتطفو درره على السطح. فيرى فيه ما كان مستورا. ليبلغ التأويل مداه. ومع ذلك لا يمكن للقراءة الجديدة أن تقول كلمتها النهائية عقب كل تأويل لأن وراءَ المعاني معاني أُخر. وخلف ظواهرِ النّصوص بواطنَ لا تحصى من أجل ذلك لم يكن بيد القراءة سوى مفاتيح الأسئلة التي لا تتناهي في ضوء ما هو متاح اليوم من إمكانية انفتاح النصوص بما فيها النصوص القديمة التي نراها ميدانا لكثير من تساؤلات النقد الحديث.

الحواشي

١ - الجاحظ (الحيوان). تحقيق عبد السلام هارون. ط بمصر ١٩٤٧م. ص ١/ ٤٥.

٢ - قاسم. سيزا وإدريس. قاسم (أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة) ص: ٢٠٨.

٣ - مرتاض. عبد الملك (التحليل السيميائي للخطاب الشعري) ط. اتحاد الكتاب العرب. دمشق ٢٠٠٥م.

٤ - بدوي. محمد جاهين (سيميائية التناظر والتقابل في شعر ابن زيدون- اللونية نموذجاً) حوليات كلية اداب القاهرة ٢٠٠٤م.

٥ - يوسف محمد (الدلالات المفتوحة - مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة). نشر الدار العربية. منشورات الاختلاف ٢٠٠٥م.

٦ - مرتاض. عبد الملك (التحليل السيميائي للخطاب). ص: ٢٤.

٧ - أثبت الصفدي (ومن جُرد) وقال: يقولون لداء يحدث في قوائم الدواب جَرَد والصواب جرذ بالذال معجمة وهذا قول أهل اللغة إلا أن ابن دريد قال في الجمهرة: لا أدري بالدال هو أم بالذال. (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف). للصفدي. نشره فؤاد سزكين. فرانكفورت. ١٩٨٥. ص:٢٢/ ١٢٢).

٨ - النقاش. زجاء (شاعر برثي قطة) منتديات التاريخ. صحيفة إلكترونية. نشرت بتاريخ ١٤٢٦/٧/٩هـ.

٩ - المرجع السابق.

١٠ - ابن خلكان (وفيات الأعيان) تحقيق د. إحسان عباس ط دار صادر. بيروت. ص٥٠/ ٣٤٢.

١١ ابن منظور (هرّ).

١٢ - ابن طيفور (بلاغات النساء). تحقيق أحمد الألفي. القاهرة١٩٠٨م. ص: ٢١٠.

١٣ - ابن عبد القرطبي (بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذاهن والهاجس) نشرد محمد مرسي الخولي بمصر ١٩٨١م. ص١٤٠.

١٤ الثعالبي (ثمار القلوب في المضاف المنسوب). تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. طبع بمصر ١٩٦٥م. ص: ٣٢١.

١٥ - الزمخشري (ربيع الأبرار) طبع بمصر ١٢٩٢هـ. ص: ١٣١.

١٦ - الصفدي (نكت الهميان في نكت العميان). طبعة أحمد زكي وآخرون. مصر ١٩١١ ص:٢٣٠.

١٧ النويري (نهاية الأرب في فنون الأدب) ط بمصر ١٩٩٠م ص: ١٢/ ١٢٣

١٨ - المصدر السابق

١٩ - المصدر السابق

٢٠ المصدر السابق

٢١ - ابن خلكان (وفيات الأعيان) ص ٤/ ٣١٢.

٢٢ - النويري (نهاية الأرب) ص: ١٢/ ١٢٤.

٢٣ - الصفدي (نكت الهميان) ص: ٢٣٥.

٢٤ - ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ط القاهرة ١٩٦٣م ص: ٤/ ٢٢١.

٢٥ - ابن خلكان (وفيات الأعيان) ص: ٥/ ٣٢١.

٢٦ - ياقوت (معجم الأدباء) تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٩٣م ص: ١/ ٢١٧

٢٧ - ابن قتيبة (أدب الكاتب) ط ليدن١٩٠١م ص:١٤٣.

٢٨ - اليوسي. نور الدين (زهر الأكم في الأمثال والحكم). تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر. الدار البيضاء ١٩٨١.ص: ٣٢٠.

٢٩ - الزمخشري (المستقصى في أمثال العرب) ط بيروت ١٩٧٧م ص ١٤٣٠.

٣٠ - أرسلان. شكيب (المختار من رسائل الصابئ) ص٢٦٥.

٣١ - الثعالبي (يتيمة الدهر) ص ٣/ ٢٣١.

المصادر والمراجع:

١ - أرسلان شكيب : المختار من رسائل الصابئ. طبع دار النهضة ١٩٦٠م.

٢ - ابن تغري بردي: (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة). طبع القاهرة ١٩٦٣م.

٣ - الثعالبي. أبو منصور: (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم طبع بمصر ١٩٩٥م.

٤ - الثعالبي. أبو منصور: (يتيمة الدهر). تحقيق مفيد قميحة. ط ١. طبع الدار العلمية. بيروت ١٩٧٣م.

٥ - الجاحظ. عمرو بن بحر: (الحيوان). تحقيق عبد السلام هارون طبع بمصر ١٩٤٧م.

٦ - ابن خلكان : (وفيات الأعيان). تحقيق إحسان عباس طبع دار صادر بيروت.

٧ - الزمخشري: (ربيع الأبرار) طبع بمصر ١٢٩٢هـ.

٨ - الزمخشري: (المستقصى في أمثال العرب). طبع ببيروت ١٩٧٧م.

٩ - الصفدي:(نكت الهميان في نكت العميان) طبعه أحمد زكي وآخرون مصر ١٩١١م.

١٠ - الصفدي. (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف) نشره فؤاد سزكين فرانكفورت ١٩٨٥م.

١١ - ابن طيفور : (بلاغات النساء). تحقيق أحمد الألفي القاهرة ١٩٠٨م.

١٢ - ابن عبد البر القرطبي. (بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذاهن والهاجس) نشره محمد مرسي الخولي بمصر ١٩٨٠م.

١٣ - قاسم. سيزا و إدريس: (أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة) بيروت ١٩٨٦م.

١٤ - ابن قتيبة:(أدب الكاتب). طبعة ليدن١٩٠١م.

١٥ - مرتاض.عبد الملك: (التحليل السيميائي للخطاب الشعري) طبع اتحاد الكتاب العرب بدمشق ٢٠٠٥م

١٦ - النقاش. رجاء: (شاعر يرثي قطة). مقال منشور في شبكة المعلومات صحيفة منتديات التاريخ الإلكترونية بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٩م.

١٧ - يوسف. محمد.(الدلالات المفتوحة - مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة). نشر الدار العربية للدراسات. ٢٠٠٥م.

١٨ - اليوسي. نور الدين: (زهر الأكم في الأمثال والحكم). تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر. طبع بالدار البيضاء.